الحائز على جائزة نوبل للآداب

ويليام فوكنر

بينما أرقد محتضرة

رواية

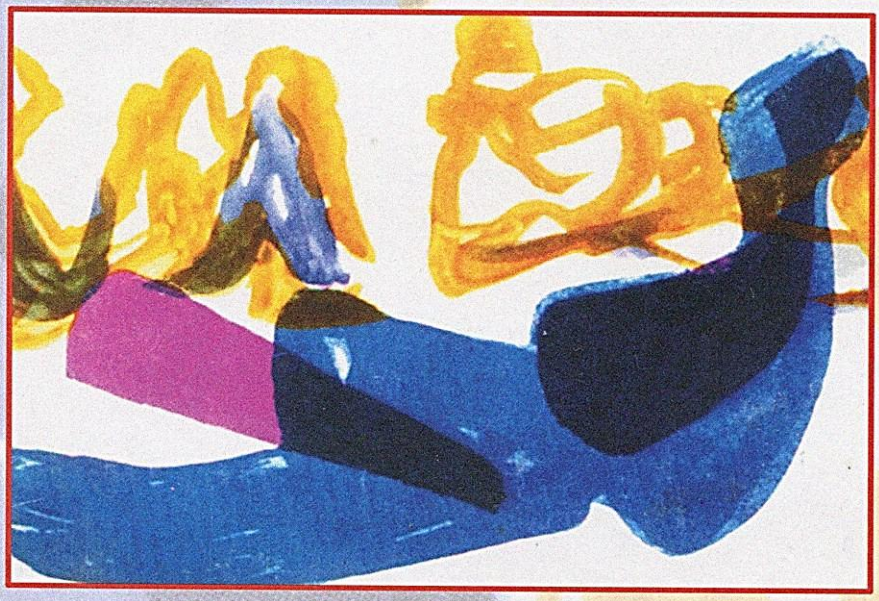

ترجمة: توفيق الأسدي

دار الخيال

علي مولا

بينما أرقد محتضرة

As I Lay Dying

بينما أرقد محتضرة

تأليف: **ويليام فوكنر**

ترجمة: **توفيق الأسدي**

حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر©

للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 ـ شارع الكويت
المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308
لبنان ـ تلفاكس : 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ دار الخيال **للطباعة والنشر والتوزيع**
الطبعة الأولى 1988
الطبعة العاشرة 2010

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

ويليام فوكنر

بينما أرقد محتضرة

رواية

ترجمة: توفيق الأسدي

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة المترجم

حين قرأت رواية «بينما أرقد محتضرة» للمرة الأولى منذ ستة عشر عاماً فتنتني حوادثها وشخصياتها والعمق الذي تناول به المؤلف الشخصيات؛ ولكني لم أكن أفكر في ترجمتها آنذاك.

وحين أعدت قراءتها منذ عامين وقد وضعت ترجمتها نصب عيني، لم أتصور أبداً خلال قراءتها أن ترجمتها ستكون في مثل هذه الصعوبة وأنها ستضع أمامي كل تلك العراقيل التي لم يسبق لي أن عرفتها خلال ترجمتي لأعمال أدبية أخرى. وليس هذا بالمستغرب طبعاً حين نعرف أن النقاد اعتبروها أصعب روايات فوكنر على الفهم.

وحين شرعتُ بترجمتها فعلاً، وكان ذلك في صيف (1983) كان ذلك أشبه بمن يصعد جبلاً وهو يحمل كيساً ثقيلاً من الحجارة وله ساق عرجاء. كانت ترجمة كل صفحة من صفحاتها أشبه بمخاض يفرض عليّ أن أرتاح أياماً بين الصفحة والأخرى. وبعد أن ظللت أترجم فيها مدة شهورٍ أربعة، تركتها دون أن أنجز منها أكثر من ثلاثين صفحة ثم عدت إليها بعد ستة أشهر فترجمت منها ثلاثين أخرى ثم تركتها سنة كاملة لأنجز ما تبقى منها خلال أربعة شهور من العمل المتواصل.

لدى قراءتك لهذة الترجمة سترى أيها القارىء العزيز أني وضعت لها الكثير من الحواشي والإضافات، وإن كنت تركت الكثير الكثير دون تفسير وإلاّ ضاعت لذة القراءة ومتعة البحث عن المجهول. وإن كنت ستجد أحياناً أن هناك جملة غير مكتملة المعنى أو مفردة وردت في غير محلها أو صورة شعرية ـ أجل شعرية فهذه الرواية عبارة عن قصيدة طويلة مكثّفة إلى أبعد الحدود ـ غريبة كأشد ما تكون الغرابة، فلا تظنّن أن في ذلك خطأ مطبعياً أو في النقل، فقد بذلت جهدي لتأتي الترجمة أمينة إلى أقصى حد، وحاولت أن أحافظ على الإيقاع الداخلي لأسلوب فوكنر ما وسعني ذلك، وكذلك طريقته في التنقيط، فلم أغيّر فيها إلاّ قليلاً وعند الحاجة الماسة وكما تقتضي اللغة العربية. كما ستلاحظ أيها القارىء العزيز أن هناك مفردات وجملاً وفقرات ترد مطبوعة بحرف مختلف عن بقية الكتاب، وكانت تلك أداة اتبعها المؤلف كي يشير إلى القارىء بأن الزمن مختلف هنا عن زمن الأحداث الجارية في فصل ما من الفصول.

أحداث الرواية

نظراً لصعوبة فهم هذه الرواية وتشابك حوادثها واستعمال المؤلف لطريقة تيار الوعي في سرد حوادثها، ارتأيت أن أقدم للقارىء ملخصاً لأهم أحداثها ثم نبذة عن شخصياتها الرئيسية دون الدخول في كثير من التفاصيل:

تبدأ الرواية وآدى بندرن، وهي أم لأربعة أبناء وبنت واحدة (كاش ودارل وجوويل وديووى ديل وفاردامان)، راقدة على فراش الموت تلفظ آخر أنفاسها، ويزورها بين الحين والآخر جيرانها: فرنون تل وزوجته كورا وبناتهما. وبما أن رغبتها الأخيرة هي أن تدفن في مقبرة ذويها في مدينة جيفرسون البعيدة عن بيت زوجها ومزرعته (آنس بندرن)، فلا بدّ من نقلها بالعربة إلى هناك بعد أن تموت. إلا أنّ دارل وجوويل يذهبان بالعربة الوحيدة التي تملكها العائلة لنقل حمولة إلى قرية مجاورة ليكسبا ثلاثة دولارات فحسب. ثم يسوء الطقس وتنقلب بهما العربة في طريق العودة مما يؤخر هذه العودة وبالتالي تموت أمهما دون أن يودعاها الوداع الأخير، ويؤخر بالتالي أكثر من ثلاثة أيام نقل جثمانها إلى مدينة جيفرسون. أخيراً وحين ينطلقون جميعاً في

رحتلهم لنقل الجثمان يكون النهر قد ارتفع منسوبه بسبب الأمطار الشديدة وانهارت الجسور، فيتكبدون الكثير من المشاق ويعانون من صعوبات جمة ولا يتمكنون من دفن الجثمان إلاّ بعد مرور حوالي عشرة أيام على وفاة الأم.

وخلال هذه الرحلة التي تروي الشخصيات حوادثها، كل من وجهة نظرها الخاصة، نتعرّف على الخلفية الإجتماعية لهذه الأسرة ومعاناة المزارعين الفقراء من البيض في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية، كما نتعرف على كل شخصية على حدة وما هي مشاكلها الفردية، آمالها ومطامحها.

(المترجم)

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

شخصيات الرواية

1ـ **آنس بندرن**: رب الأسرة وزوج المرأة المحتضرة. رجل كسول ذو شخصية مهزوزة وضعيفة أمام زوجته وأولاده وإن يكن ذا عناد وتصميم في أمور أخرى.

2 ـ **آدي بندرن**: الزوجة والأم المحتضرة: شخصية معقّدة، لا تحب زوجها وتتحيّز في معاملة أطفالها وأعتقد أن الفصل الوحيد الذي ترويه هو أجمل فصول الرواية.

3 ـ **كاش**: الابن الأكبر: يعمل نجاراً. شخصية متفانية في عملها واخلاصها للأسرة.

4 ـ **دارل**: الابن الثاني: كسول غريب الأطوار يروي معظم فصول الرواية (حوالي 30 من أصل 59). وإن كانت الأفكار الفلسفية التي يطرحها لا تتناسب مع شخص مثله.

5 ـ **جوويل**: الابن الثالث: لا نعرف الكثير عنه من الداخل إذ يروي فصلاً واحداً فقط من الرواية، ولكنه عنيف وذو إرادة وتصميم.

6 ـ **ديووي ديل**: الابنة الوحيدة للأسرة: فتاة تشعر بظلم كبير.

7ـ **فاردامان**: الابن الأصغر: وهو يروي كثيراً من فصول الكتاب بأسلوبه الطفولي ومن خلال وجهة نظره البريئة الساذجة المندهشة أمام الأحداث الكبيرة والفلسفية أكثر من اللازم أحياناً.

8ـ **فرنون تل**: أقرب جيران آل بندرن، شخص متدين يمد يد المساعدة إلى جيرانه وقت الحاجة.

9ـ **كوراتل**: زوجته المتدينة الضيقة الأفق.

01ـ **بيبودى**: الطبيب.

أما بقية الشخصيات فتروي فصلاً واحداً وتتدخل قليلاً في الأحداث وسيتعرف عليها القارىء خلال قراءته للرواية.

(المترجم)

ويليَام فوكنر

ولد ويليام فوكنر قرب مدينة «أوكسفورد» في ولاية الميسيسبي الأمريكية عام (1897). وقدكان الكولونيل «ويليام فوكنر»، أحد شخصيات الجنوب الأمريكي المتطرّفة الغريبة الأطوار، الأبية جداً.

لم يكن ويليام ناجحاً في المدرسة، كما أن الجيش الأمريكي رفض قبوله في سلاح الطيران نظراً لقصر قامته وذلك خلال الحرب العالمية الأولى، فتطوع في سلاح الطيران الكندي لكنه لم يشارك في الحرب. وبعد أن انتهت الحرب التحق بجامعة الميسيسبي لفترة من الزمن ومارس بعدها أعمالاً متنوعة. وبينما كان يعمل في «نيو أورليانز» قابل الروائي الأمريكي «شيروود أندرسون» الذي شجّعه على الكتابة، فكان أن ألّف روايته الأولى «راتب الجنود» (عام 1926). ثم كتب روايات أخرى وقصصاً قصيرة. وفي عام (1929)، وهو العام الذي تزوج فيه، عمل كحمّال للفحم في محطة توليد للقوى وكتب رواية «بينما أرقد محتضرة» (عام 1930) بين ساعات منتصف الليل والساعة الرابعة صباحاً، وذلك خلال فترة أسابيع ستة من الصيف. ثم كتب رواية «الملتجأ» التي أرادها أن تكون مثيرة وأن تحقّق مبيعات كبيرة، حيث أن رواياته الأولى لم تحقق ذلك. ثم عمل فيما بعد في كتابة بعض

السيناريوهات لهوليوود من أجل كسب المال فحسب. وقبل موته بقليل (عام 1962)، انتقل فوكنر ليسكن في ولاية فرجينيا، نال فوكنر جائزة نوبل للآداب عام (1949).

من أعمال ويليام فوكنر

1ـ راتب الجنود:1926.

2ـ البعوض: 1927 (مترجمة إلى العربية).

3ـ سار توريس: 1927 (مترجمة إلى العربية).

4ـ الصخب والعنف: 1929 (مترجمة إلى العربية).

5ـ بينما أرقد محتضرة: 1930

6ـ الملتجأ: 1931

7ـ نـــور في آب: 1932 (ترجمها إلى العربية توفيق الأسدي ونشرت عام 1994).

8ـ غير المنهزمين: 1934

9ـ بايلون: 1935

10ـ أبسالوم أبسالوم!: 1936

11ـ النخيل البري: 1939

12ـ القرية: 1940

13ـ اهبط يا موسى: 1942

14ـ متطفل في الرماد: 1984

15ـ قداس لراهبة: 1951 (مترجمة إلى العربية).

16ـ المدينة: 1957

17ـ المنزل القديم: 1959

18ـ الدب: (مترجمة إلى العربية).

إهداء المؤلف

إلى هَال سميث

دارل

نصعد، جوويل وأنا، من الحقل، نتقفّى آثار الممرّ، الواحد في أثر الآخر. ورغم أني أسبقه بخمس عشرة قدماً، فإن أي شخص يراقبنا من مخزن القطن سيرى قبعّة جوويل المصنوعة من القش، المهترئة والمهشمّة، تعلوني بمسافة تعادل رأساً كاملاً.

يجري الممرّ مستقيماً كأنه خيط الفادن، وقد ملس من كثرة ما مرّت عليه الأقدام وشوته شمس تموز حتى أصبح قاسياً كالآجر، وذلك بين الصفوف الخضراء من نباتات القطن المهملة، حتى يصل إلى مخزن القطن في منتصف الحقل، وهناك يستدير ويلتفّ من حول مخزن القطن مشكّلاً أربع زوايا قائمة غير حادة ثم يستمر عبر الحقل مرة أخرى، وقد أَبْلَتْه الأقدام في دقّة متضائلة.

مخزن القطن مبني من جذوع غير مصقولة، سقط من بينها ما كان يسدّ الشقوق منذ زمن طويل. هو مربع الشكل سقفه محطم ومنخدر، وها هو يتكّىء خراباً فارغاً ومُومِضاً تحت نور الشمس، له نافذتان عريضتان في جدارين متقابلين تشرفان على المجازات المؤدية إلى الممر. وحين نصل إليه أستدير وأتبع آثار الممر الذي يدور حول المخزن. وها هو جوويل، الذي

يتخلف عني مسافة خمسة عشر قدماً، ينظر نحو الأمام مباشرة، ويعبر من النافذة بخطوة واحدة. إنه لا يزال يحدق أمامه مباشرة وعيناه الباهتتان الأشبه بلون الخشب متوضعتان في وجهه المتخشب، ها هو يعبر أرض المخزن في أربع خطوات وبجدية تمثال هندي السيجار[1] مرتدياً «أوفرله» المرقّع ومترعاً بالحياة من الوركين وإلى الأسفل، ثم يخطو ثانية عبر النافذة المقابلة في خطوة واحدة ومن جديد يعود إلى الممر في اللحظة التي كنت ألتف فيها حول الزاوية. وفي رتل واحد لا تفصلنا سوى خمس خطوات، وجوويل في المقدمة الآن، نتابع سيرنا صاعدين في الممرّ باتجاه سفح الجرف.

تقف عربة «تَل» قرب النبع، مربوطة إلى السياج والعنان ملفوف حول دعامة المقعد. في حوض العربة كرسيان. يتوقف جوويل عند النبع، يأخذ اليقطينة من غصن الصفصافة ويشرب. أمر متجاوزاً إيّاه صاعداً الممرّ وقد بدأت أسمع صوت منشار «كاش».

حين أصل القمة أراه قد تخلّى عن النشر. وها هو يقف ضمن ركام من نشارة الخشب يلصق اثنين من الألواح واحدهما بالآخر. وبين المسافات الظليلة تبدو الألواح صفراء بلون الذهب، الذهب المصقول، تحمل على جوانبها في تموّجات ملساء آثار شفرة القدوم: يا له من نجار جيد، «كاش» ذلك!. ها هو يمسك باللوحين الموضوعين على «جحش» النجارة، وقد التصقا عند الحواف مشكلين ربع الصندوق المكتمل. يركع ويغمض عينيه نصف إغماضة وهو ينظر على امتداد الحواف ثم، ينزلهما ويتناول القدوم. يا له من نجار جيد! لا يمكن لآدي بندرن أن تتمنى صندوقاً أفضل منه لتتمدّد فيه. سيمنحها هذا الثقة والراحة، أتابع سيري نحو المنزل يتبعني صوت القدوم: تشاك تشاك تشاك.

1 ـ (تمثال بالحجم الكامل، يمثل هندياً أحمر يوضع في مداخل المخازن التي تبيع السيجار والتبغ) (المترجم).

كورا

وهكذا ادّخرت البيضات وخبزتُ البارحة. وقد نجح الكعك تماماً. نحن نعتمد كثيراً على دجاجاتنا. وهن دجاجات بيّاضات، تلك القلة التي تبقت بعد غارات «الأوبوسوم»[1] وما شابهه. والثعابين في الصيف كذلك. إن الثعابين أسرع الحيوانات في اختراق قن الدجاج. وهكذا وبعد أن تبيّن أنها ستكلف أكثر بكثير مما كان السيد تَلْ يظن، وبعد أن وعدتُ بأن الفرق في عدد البيض سيعوِّض عن الخسارة، كان عليّ أن أكون أكثر حرصاً فهو لم يقبل أن يشتريها في الأصل إلاّ بناءً على تعهدي. كان يمكننا شراء دجاج من النوع الأرخص ولكني منحت تعهدي بناء على نصيحة السيدة لوونغتون التي قالت أنه من الأفضل الحصول على سلالة جيدة، كما أن السيد تَلْ نفسه يقرّ بأن السلالة الجيدة من الأبقار أو الخنازير لها مردود أفضل مع مرور الزمن. وهكذا حين خسرنا الكثير من الدجاجات لم نعد نستطيع استهلاك البيض شخصياً لأني ما كنت أريد أن يؤنّبني السيد تلْ بعد أن تم شراؤها بناءً على تعهدي. إذن فحين نصحتني السيدة لوونغتون بخبز الكعك

1 ـ حيوان أمريكي.

فكرت أنه يمكنني أن أصنع الكعك وأكسب ما يكفي في مرة واحدة دجاجتين كاملتين تعويضاً عن الخسائر السابقة وهكذا فإنه عن طريق ادخار البيض ـ بيضة واحدة كل مرة ـ لم تكلفنا البيضات شيئاً، وفي ذلك الأسبوع باضت الدجاجات كثيراً إلى حد أنني لم أدخر من البيض ما هو زائد على ما التزمت ببيعه فحسب، بل ما يكفي لخبز «الكعك» به، لقد ادخرت ما يكفي بحيث أن الدقيق والسكر وحطب الموقد لم تكلفني شيئاً. وهكذا خبزت البارحة، وكنت حريصة على الخَبْز كما لم أكن طوال حياتي، وقد كان الكعك ناجحاً تماماً. ولكننا حين وصلنا إلى البلدة هذا الصباح أنبأتني السيدة لووينغتون بأن المرأة قد غيّرت رأيها وأنها لن تقيم الحفلة رغم كل شيء.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري ذلك الكعك على أية حال».

أقول: «حسناً، أعتقد أنها لم تعد في حاجة إليه الآن».

تقول كيت: «كان عليها أن تشتريه، ولكن سيدات المدينة الثريات أولئك يمكنهن العدول عن رأيهن. أما الفقيرات فلا يمكنهن ذلك».

الثراء لا شيء بالنسبة إلى الرب فهو يستطيع أن يرى ما في القلب.

أقول: «ربما أستطيع بيعه في السوق يوم السبت». لقد كان الكعك ناجحاً تماماً.

تقول كيت: «لا يمكنك الحصول على دولارين لكل قالب».

أقول: «حسناً، إن الكعك لم يكلفني شيئاً».

لقد أدّخرت البيضات ثم قايضت اثنتي عشرة بيضة مقابل السكر والدقيق. لم يكلفني الكعك شيئاً، كما أن السيد تلْ نفسه يدرك أن البيضات التي ادخرتها كانت زيادة عما التزمنا ببيعه، وهكذا فإن الأمر

يبدو وكأننا قد وجدنا البيضات أو أنها أهديت إلينا.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري ذلك الكعك طالما منحتك وعداً بذلك». يستطيع الرب أن يرى ما في القلب. وإن كانت إرادته أن يكون لبعض الناس آراء مختلفة عن غيرهم فيما يتعلق بالأمانة، فلست ممن يشكون في قضائه.

أقول: «أعتقد أنها لم تعد في حاجة إلى الكعك». كما أنه كان ناجحاً تماماً أيضاً.

اللحاف مشدود حتى ذقنها، رغم حرارة الجو، ولا يبدو منها سوى يديها ووجهها. إنها مسندة إلى الوسادة ورأسها مرفوعة بحيث تستطيع أن تنظر عبر النافذة، ونحن نستطيع أن نسمعه في كل مرة يتناول فيها القدوم أو المنشار. ولو كنا صمّاً لاستطعنا تقريباً أن نراقب وجهها وأن نسمعه[1] أن نراه. وجهها قد هزل إلى حد أن العظام تبرز من تحت البشرة في خطوط بيضاء، عيناها كشمعتين حين تراقبهما تذوبان نحو محجري شمعدانين حديديين. ولكن الخلاص والرحمة الأبديين والخالدين لا يبدوان عليها.

أقول: «لقد كان «الكيك » ناجحاً تماماً. ولكنه ليس كالذي اعتادت آدي أن تخبزه». يمكنك أن ترى غسيل وكيّ تلك الفتاة في غطاء الوسادة، هذا إن كان مكوياً على الإطلاق. وربما سيكشف لها هذا عن عماها، فها هي ذي ممددة هناك تحت رحمة وخدمة أربعة رجال وفتاة متشبهة بالصبيان. أقول: «لا توجد امرأة في هذا الإقليم يمكنها أن تخبز مثل أدي بندرن. ومن يدري فقد تنهض لتخبز ثانية وعندها لن نجد من يشتري ما نخبزه». تحت اللحاف لا يشكل

1 ـ أي كاش. (المترجم).

جسمها أي بروز أكبر من ذلك البروز الذي يمكن لقضيب سكة الحديد أن يشكّله، والأمر الوحيد الذي يجعلك تدرك أنها تتنفس هو صوت غطاء الفرشة. حتى الشعر الذي على خدها لا يتحرك، رغم تلك الفتاة الواقفة منحنية فوقها تروح بالمروحة. وبينما نراقب نحن تقوم هي بنقل المروحة إلى اليد الأخرى دون أن تتوقف عن الترويح.

تهمس كيت: «هل هي نائمة؟».

تقول الفتاة: «إنها لا تستطيع مراقبة كاش وهو هناك». نحن نستطيع سماع صوت المنشار ينشر اللوح. يبدو الصوت وكأنه شخير. تستدير «يولا» في جلستها فوق صندوق الثياب وتنظر عبر النافذة. تبدو قلادتها جميلة فعلاً مع قبعتها الحمراء تلك. لن تحسب أنها لم تكلّف سوى خمسة وعشرين سنتاً.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري ذلك الكعك.

كان يمكنني أن أستعمل ذلك المبلغ على نحو جيد. ولكن «الكيك» لم يكلفني شيئاً عدا خبْزه. سأقول له إن أي شخص يمكن أن يرتكب خطأ ما، ولكن لا يستطيع الجميع الخلاص منه دون خسارة. يمكنني أن أقول له ذلك. لا يتاح للجميع أن يأكلوا أخطاءهم. يمكنني أن أقول له ذلك.

يدخل أحدهم عبر البهو. إنه «دارل». لا ينظر إلى الداخل لدى مروره عبر الباب. تراقبه يولا وهو يتابع السير ويبتعد عن الأنظار مرة أخرى نحو الخلف. ترتفع يدها وتلمس عقدها بخفة، ثم شعرها. وحين تراني أراقبها تصبح عيناها مشدوهتين دون معنى.

دارل

يجلس بابا و «فرنون» على الرواق الخلفي. بابا يخرج النشوق من حافة علبة نشوقه ويضعه على شفته السفلى ممسكاً بشفته ممطوطة بين إبهامه وسبابته. يلتفتان حين أعبر الرواق وأغمس اليقطينية في دلو الماء وأشرب.

يقول بابا: «أين جوويل؟» حين كنت صغيراً عرفت لأول مرة كيف أن الماء يكون ذا مذاق أفضل بكثير حين يُترك بعض الوقت في دلو مصنوع من خشب الأرز: يكون بارداً دافئاً بعض الشيء، وله مذاق خفيف أشبه برائحة ريح تموز (يوليو) الساخنة حين تهب بين أشجار الأرز. يجب تركه فترة ست ساعات على الأقل ثم يُشرب من يقطينة. لا يجب أن يشرب الماء من المعدن أبداً.

وفي الليل يكون الأمر أفضل حتى، لقد اعتدت أن أتمدد على حشية القش في القاعة، منتظراً حتى ينام الجميع ويعم الهدوء، فأنهض وأعود إلى الدلو. يكون الظلام مخيماً. والرف مظلماً، والسطح الساكن للماء فوهة مستديرة في العدم، حيث كنت أستطيع قبل تحريكه أن أرى نجمة

أو اثنتين في الماء، وربما نجمة أو نجمتين في الغرفة قبل أن أشرب. بعد ذلك أصبحت أكبر حجماً وسناً، وحينذاك كنت أنتظر حتى ينام الجميع حتى أستطيع أن أتمدد رافعاً ذيل قميصي إلى الأعلى، مصغياً إليهم نائمين، أحس بنفسي دون أن ألمسها، وأشعر بالصمت البارد يلفح أعضائي وأتساءل إن كان كاش القابع هناك في الظلام يفعل نفس ما أفعل، أو أنه كان يفعله طوال هذين العامين الأخيرين ربما، قبل أن أقدر على الرغبة بفعل ذلك أو أقدر عليه.

قدما بابا مفلطحتان بشدة، وأصابع قدميه متشابكة وملويّة ومشوّهة ولا وجود لأي ظفر على أصابع قدميه الصغيرة، وذاك من العمل المضني في الجو الماطر بحذاء من صنع البيت حين كان ما يزال صبياً . إلى جانب كرسيه يجلس مداسه، يبدو وكأنه قُدْ بفأس مثلومة من الحديد الخام. فرنون كان قد مضى إلى البلدة، لم يسبق لي أن رأيته يذهب إلى البلدة في الأفرول. إنها زوجته كما يقولون. كانت معلمة في المدرسة أيضاً.

أرمي بحثالة الماء المتبقية في المغرفة إلى الأرض وأمسح فمي بكمي. ستمطر قبل الصباح. ربما قبل الظلام، أقول: «هيا إلى الحظيرة. تطقيم الخيل».

هناك يعبث مع ذلك الحصان، سيخرج من الحظيرة إلى المرعى. لن يكون الحصان مرئياً: ها هو الآن بين شجيرات الصنوبر، في البرودة يصفّر جوويل، صفرة واحدة حادة. يصهل الحصان، فيراه جوويل يومض لبرهة مبهرجة بين الظلال الزرقاء. يصفر جوويل مرة أخرى، يتقدم الحصان هابطاً المنحدر بقوائم متيبسة، وأذناه تنتصبان وتنتفضان، وعيناه الزائغتان تتقلبّان، ويلحق به على بعد عشرين قدماً،

دفعة واحدة، ويراقب جوويل من فوق كتفه بمرح وحذر.

يقول جوويل: «تعال إليّ يا سيدي». يتحرك، يحرك جلده بذلك النزق، ينتفخ، الألسنة تدوّم كأنها ألسنة لهب عديدة. يندفع الحصان بطفرة أخرى قصيرة وعرفه وذيله يتماوجان وعيناه تتقلبان ثم يتوقف ثانية، قوائمه مضمومة وهو يراقب جوويل. يسير جوويل بثبات نحوه، ويداه إلى جانبيه. وباستثناء ساقي جوويل بدا هو والحصان كتمثالين منحوتين لأجل لوحة بدائية تحت الشمس.

وحين يقدر جوويل على لمسه تقريباً، يشبّ الحصان على قائمتيه الخلفيتين ثم ينقضّ على جوويل. ثم يصبح جوويل مطوّقاً بشبكة لامعة من الحوافر. كأنما بوهم من أجنحة؛ وبينهما، وتحت الصدر المرتفع، كان جوويل يتحرك بالرشاقة البارقة التي للثعبان. ولبرهة، وقبل أن تصل النخعة إلى ذراعيه يرى جسده كله وقد تحرر من الأرض بوضع أفقي، ثم وهو يخفق بمرونة حتى يجد منخري الحصان ويلمس الأرض من جديد. ثم يجمدان، دون حراك، رائعين، والحصان قد اندفع بجسمه نحو الخلف وانتصب على قوائم متيبسة راجفة، ورأسه مدلاة. جوويل بعقبين مغروزين يصد تنفس الحصان بيد ويربت على عنقه بالأخرى ربتات قصيرة عديدة، يلاطفه ويشتمه بضراوة مقذعة.

يقفان في لقاء رائع صارم، الحصان يرتجف ويحمحم. ثم ها هو جوويل فوق ظهر الحصان. يتدفق نحو الأعلى في دوامة منحنية كضربة سوط، جسده في الهواء وقد اتخذ شكل الحصان. وللحظة أخرى يقف الحصان مفرشخاً ورأسه مطأطئة، قبل أن يندفع للحركة، يهبطان التل في سلسلة من القفزات اللاوية للعمود الفقري، جوويل

عالياً، كالعلقة فوق الحارك[1]، وحتى يصل الحاجز حيث يضم الحصان قوائمه من جديد فيتوقف في حركة أشبه بالعدو.

يقول جوويل: «حسناً، يمكنك أن تستريح الآن إن كنت تعبت».

داخل الحظيرة ينزلق جوويل نحو الأرض قبل أن يتوقف الحصان. يدخل الحصان إلى المربط وجوويل يلحق به. ودون أن ينظر إلى الخلف يرفسه الحصان، ضارباً حافراً واحداً على الجدار بصوت أشبه بطلقة مسدس. يرفسه جوويل في بطنه؛ يحني الحصان عنقه نحو الخلف، وقد أبرز أسنانه؛ يضربه جوويل على وجهه بقبضته ثم ينزلق نحو المعلف ويركبه. وبينما يتشبث بالمتبنة يخفض رأسه ويحدق عبر المربط وخلال الباب. الممر فارغ؛ من هناك لا يستطيع أن يسمع حتى صوت منشار كاش. يمد يديه وينزل التبن ملء ذراعيه بسرعة ويدفعه نحو المتبنة.

يقول: «كُلْ. لا تُبقِ شيئاً من هذا العَلَف طالما أتيحت لك الفرصة أيها النغل الجبان. يا ابن القحبة الجميل».

1 ـ الحارك: أعلى كاحل الفرس. (المترجم).

جووبل

ذلك لأنه يبقى هناك في الخارج، تحت النافذة تماماً، وهو يطرق وينشر ذلك الصندوق اللعين. هناك حيث تراه هي. هناك حيث كل نفس تتنشّقه مترع بطرقه ونشره حيث يمكنها أن تراه يقول هيا انظري، انظري كم هو جيد التابوت الذي أصنعه لك. لقد قلت له أن يذهب إلى مكان آخر. قلت له يا إلهي أتود أن تراها فيه؟ إن هذه لتشبه تلك الأيام حين كان صبيّاً صغيراً وقالت له إنه لو كان لديها بعض السماد لحاولت تربية بعض الأزهار، وأخذ هو مقلاة الخبز وأعادها من الحظيرة ملأى بالروث.

وها هم الآن أولئك الآخرون جالسون هناك كالجوارح. ينتظرون، يرّوحون من الحر. نصحته ألا يستمر في النشر وطرق المسامير على التابوت بحيث لم نعد نستطيع النوم جيداً ويداها ممددتان على اللحاف كجذرين نبشا من الأرض وحاولْتَ غسلهما ولم تستطع أن تجعلهما نظيفين. أستطيع رؤية المروحة وذراع «ديووي ديل». نصحته أن يتركها بحالها. ها هو ينشر ويطرق وأنت تجعلين الهواء يتحرك باستمرار وبسرعة على وجهها بحيث أنك حين تتعبين لا

يمكنك أن تتنفسيه، وذلك القدوم اللعين تخف قوته مع كل ضربة، مع كل ضربة، مع كل ضربة حتى يضطر كل من يمر في تلك الطريق إلى التوقف ومشاهدة التابوت والتعليق على مهارته كنجار. لو كنت أنا من وقع من على تلك الكنيسة بدلاً عن كاش، ولو كنت أنا بدل بابا حين سقط عليه حمل الحطب، لما كان كل نغل في المقاطعة سيأتي ليحدق فيها (أي الأم[1]،) لأنه لو كان هناك رب فلماذا هو موجود؟ كان الأمر سيقتصر عليّ وعليها ونحن فوق تلة عالية وأنا أدحرج الصخور نحو وجوههم من أعلى الجبل ألتقط الحجارة وأرميها من أعلى الجبل، على وجوههم وأسنانهم وكل شيء بحق الله حتى تهدأ هي وليس ذلك القدوم اللعين الذي تخف قوته مع كل ضربة. مع كل ضربة ثم نستطيع أن ننعم بالهدوء.

1 ـ إضافة من المترجم (المترجم).

دارل

نراقبه يلتف من حول الزاوية ويصعد الدرج. لا ينظر إلينا. يقول: «أنتم جاهزون؟»

أقول: «إذا كنت جاهزاً» أقول: «انتظر». يتوقف، ناظراً إلى بابا. يبصق فرنون دون أن يتحرك . يبصق بدقة محتشمة ومتعمّدة في التراب المتبثّر تحت الرواق. يمسح بابا يديه ببطء على ركبتيه. إنه يحدق خارجاً إلى ما فوق قمة الجرف، خارجاً عبر الأرض. يراقبه جوويل للحظة، ثم يتابع سيره نحو الدلو ويشرب ثانية.

يقول بابا: «أكره التردد بقدر ما يكرهه أي رجل».

أقول: «هذا يعني ثلاثة دولارات». القميص فوق حدبة بابا أبهت لوناً من بقيتّه. لا بقع من العرق على قميصه. لم أرَ أبداً بقعة عرق على قميصه. مرض مرة من العمل تحت الشمس حين كان في الثانية والعشرين وهو يقول للناس أنه لو عرق مرة أخرى بعدها فسيموت. وأعتقد أنه يصدّق ذلك.

يقول: «ولكنها لو لم تبقَ حية حتى عودتكم فستشعر بالخيبة».

يبصق فرنون في التراب. ولكنها ستمطر قبل الصباح.

يقول بابا: «لقد اتكلت هي على ذلك. ستودّ أن تبدأ بالانطلاق فوراً. أعرفها. لقد وعدتها بإبقاء البغلين هنا وعلى استعداد. وهي تتّكل على ذلك».

أقول: «سنحتاج إلى تلك الدولارات الثلاثة بالتأكيد». يحدق خارجاً عبر الأرض ويمسح بيديه على ركبتيه. منذ أن فقد أسنانه أصبح فمه ينهار في تكرار بطيء حين يضع النشوق تحت لسانه. لحيته النامية تمنح نصف وجهه السفلي ذلك المظهر الذي للكلاب المسنّة.

أقول: «الأحرى بك أن تقرّر الآن حتى نستطيع الوصول إلى هناك ونحصل على حمل قبل الظلام».

يقول جوويل: «ليست ماما مريضة إلى ذلك الحد. اخرس يا دارل».

يقول فرنون: «هذا صحيح. تبدو اليوم وكأنها أفضل مما كانت عليه منذ أسبوع. وما أن تعود حتى تكون قد استعادت صحتها».

يقول جوويل: «لا بد أنكم تعرفون. لقد أمضيتم ما يكفي من الوقت هنا تنظرون إليها، سواء أنتم أو جماعتكم». ينظر إليه فرنون. تبدو عينا جوويل بلون الخشب الباهت. إنه أطول بمسافة تعادل رأساً كاملاً من أي منا، وكان دائماً كذلك. قلت لهم إن هذا هو السبب في أن ماما كانت تضربه دائماً وتدلله أكثر، لأنه كان يمكث في المنزل أكثر. ولذا أسمته «جوويل[1]». هكذا قلت لهم.

يقول بابا: «اخرس يا جوويل». ولكنه يبدو وكأنه لا

1 ـ jewel تعني بالانكليزية الجوهرة أو الدرة. (المترجم).

يصغي كثيراً، يحدق عبر الأرض وهو يمسح على ركبتيه.

أقول: «بامكانك أن تستعير بغليّ فرنون، وسنقدر على اللحاق بك إذا لم تنتظرنا هي».

يقول جوويل: «أغلق فمك اللعين».

يقول بابا: «إنها تريد الذهاب في عربتنا نحن». يمسح على ركبتيه ثم يقول: «لا يوجد رجل يكره هذا الأمر أكثر مني».

يقول جوويل: «إنها ترقد هناك تراقب كاش وهو ينجز ذلك... اللعين». يقول ذلك بقسوة، بوحشية، ولكنه لا يلفظ الكلمة. إنه أشبه بالصبي الصغير في الظلام الذي يحاول شحذ شجاعته ثم يفزع فجأة من ضجة صوته.

يقول بابا: «لقد أرادتْ ذلك كما أرادت الذهاب في عربتنا بالذات. ستشعر براحة أكبر إذا عرفت أنها عربة جيدة وخصوصية. كانت دائماً إمرأة تحب الخصوصيات، تعرفون ذلك جيداً».

يقول جوويل: «فلتكن خصوصية إذن. ولكن كيف تتوقع ذلك بحق الجحيم...» ينظر إلى مؤخرة رأس بابا وعيناه كعينين باهتتين خشبيتين.

يقول فرنون: «بالتأكيد، ستنتظر حتى ينتهي ذلك. ستنتظر حتى يجهز كل شيء. حتى يحين وقتها المناسب. ومع حالة الطرق الحالية فلن تستغرق الرحلة زمناً طويلاً إلى البلدة».

يقول بابا: «الغيوم تحتشد للمطر. أنا رجل قليل الحظ. وكنت كذلك دائماً». يمسح بيديه على ركبتيه. «إنه ذلك الطبيب اللعين، إذ أن من المحتمل قدومه في أية لحظة. لم أستطع إيصال الخبر إليه حتى

الآن. وإذا كان سيأتي غداً ويقول لها إن أجلها قد حان فلن تنتظر. أعرفها. بعربة أو بدون عربة، لن تنتظر. عندها ستشعر بالانزعاج وأنا غير مستعد لإزعاجها مقابل العالم كله. وبما أن مدفن العائلة في «جيفرسون» وأقرباؤها أولئك الذين ينتظرونها هناك، فستكون نافذة الصبر. لقد وعدتها وكذلك الأولاد بأن نوصلها إلى هناك بأقصى سرعة تستطيعها البغال، حتى تستطيع روحها أن تكون مطمئنة». يمسح بيديه على ركبتيه. «لا يوجد رجل يكره هذا الأمر أكثر مني».

يقول جوويل بذلك الصوت القاسي الجلف: «ما بال كل واحد منكم يتحرق لإيصالها إلى هناك!... وها هو كاش تحت النافذة تماماً يطرق وينشر طوال النهار ذلك...».

يقول بابا: «تلك كانت رغبتها. ليست لديك عاطفة أو رقّة تجاهها. لم يكن لديك مثل ذلك أبداً. لن نكون مدينين بالفضل لأي شخص. أنا وهي. ونحن لم نكن كذلك حتى الآن، وسترقد براحة أكبر لو عرفت هي ذلك وأن واحداً من أولادها ينشر ألواح الخشب تلك ويدق تلك المسامير. كانت من النوع الذي يحب العناية بنفسه».

أقول: «ذلك يعني ثلاثة دولارات. هل تريدنا أن نذهب أم لا؟» يمسح بابا ركبتيه. «سنعود غداً عند الغروب».

يقول بابا: «حسناً...» ينظر إلى الخارج عبر الأرض، شعره مموج، يمضغ النشوق بلثته ببطء.

يقول جوويل: «هيا». يهبط الدرج. يبصق فرنون بدقة في التراب.

يقول بابا: «عند الغروب. ولن أتركها تنتظر».

يحدق فيه جوويل كجواب، ثم يدور حول البيت. أدخل القاعة،

أسمع الأصوات قبل الوصول إلى الباب. منحدراً قليلاً مع انحدار التلة، وكما ينحدر منزلنا، يهبّ نسيم عبر القاعة في كل الأوقات، مائلاً نحو الأعلى. لو سقطت ريشة قرب الباب الأمامي لكانت ستصعد حتى تلامس السقف، ثم تنحدر نحو الخلف حتى تصل إلى التيار الملتفّ نازلاً عند الباب الخلفي: وهكذا الأصوات. وحين تدخل القاعة، تبدو الأصوات وكأنها تنطق من خلال الهواء المحيط برأسك.

كورا

كان ذلك أجمل ما رأيت. بدأ الأمر وكأنه يعرف أنه لن يراها مرة أخرى، وأن آنس بندرن كان يأخذه بعيداً عن فراش موت أمه، وأنه لن يراها مرة أخرى أبداً في هذا العالم. كنت أقول دائماً إن دارل مختلف عن الآخرين. ودائماً كنت أقول إنه الوحيد بينهم الذي ورث طباع أمه، ولا يتمتع بأية عاطفة طبيعية. ليس جوويل ذاك، وهو الابن الذي عانت الكثير في حمله والذي دلّلته وغنّجته إلى حد كبير، وها هو يصاب بنوبات غضب كثيرة أو نوبات كآبة، فكان يخترع أشياء شيطانية ليغيظها حتى أهدىء من حدة مزاجه مرات ومرات. ليس هو ذاك الذي سيأتي ليودعها. ليس هو ذاك الذي يضيّع فرصة لكسب ثلاثة دولارات إضافية لقاء ثمن هو قبلة وداع من أمه. إنه «بندرن» قلباً وقالباً، لا يحب أحداً ولا يهتم بأي شيء سوى كيفية الحصول على شيء ما بأقل جهد ممكن. يقول السيد «تل» إن دارل طلب منهم الانتظار. قال إن دارل كاد يرجوهم على ركبتيه ألا يجبروه على تركها وهي على تلك الحال. ولكن لا شيء كان يحول دون آنس وجوويل وبين تلك الدولارات الثلاثة. لا يمكن لمن يعرف آنس أن يتوقع أمراً مختلفاً منه، ولكن أن يفكر المرء في أمر

ذلك الفتى، جوويل ذاك، الذي باع كل تلك السنوات بثمن انكارها للذات ومحاباتها له: لا يمكنهم خداعي، فالسيد تل يقول إن السيدة بندرن كانت تحب جوويل أقل من جميع أولادها الآخرين، ولكني أعرف الحقيقة. أعرف أنها كانت تحابيه، تحابي تلك الصفة نفسها التي فيه والتي جعلتها تتحمل آنس بندرن حين قال السيد تل إنه كان عليها أن تسمّمه... ومقابل ثلاثة دولارات ينكر على أمه قبلة الوداع.

عجباً، ها أنذا طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة أحضر كل مرة أستطيع فيها ذلك، وأحضر أحياناً حين لا يتوجب عليّ ذلك، مهملة عائلتي وواجباتي حتى يكون شخص ما إلى جانبها في آخر لحظاتها وحتى لا تضطر إلى مواجهة «المجهول الأعظم» دون وجه مألوف يمنحها التشجيع. لا أعني أني أستحق منّة مقابل ما أفعله: فأنا أتوقّع أن أُعامل بالمثل لاحقاً. ولكني أحمد الله أنها ستكون وجوه أحبائي، أولادي من لحمي ودمي، فقد باركني الله في زوجي وأولادي على أفضل وجه، رغم أنه يمتحنني بهم أحياناً.

لقد عاشت كامرأة وحيدة، وحيدة مع كبريائها، تحاول أن تجعل الناس لا يعرفون ما يجري، وتخفي حقيقة أنهم كانوا يتحملونها، لأنها لم تكن قد بردت بعد في التابوت حتى حملوها مسافة أربعين ميلاً لدفنها، هازئين بإرادة الله، رافضين دفنها في التراب الذي يضم آل بندرن.

قال السيد تل: «ولكنها هي التي أرادت الرحيل. كانت رغبتها أن ترقد بين ذويها».

قلت: «لِمَ لَم تذهب إليهم وهي حية بعد؟ ما كان سيمنعها أحد منهم، ولا حتى ذلك الصغير الذي أصبح كبيراً الآن إلى حد يكون معه أنانياً ومتحجّر القلب أسوة ببقيتهم».

قال السيد تَلْ: «تلك كانت رغبتها هي. وقد سمعت «آنس» يقول إنها نطقت بذلك».

قلت: «وأنت تصدق «آنس» طبعاً. إن رجلاً مثلك يصدقه. لا تقل لي مثل ذلك».

قال السيد تَلْ: «أصدقه بأمر لا يستطيع كسب شيء مني لو لم يخبرني به».

قلت: «لست مقتنعة بهذا الكلام. إن مكان المرأة هو إلى جانب زوجها وأولادها، حية كانت أم ميتة. هل تتوقع مني أن أرغب بالعودة إلى «ألاباما» وأتركك أنت والبنات عندما يحين أواني، بعد أن جئت إلى هنا بإرادتي لأعيش معك على السرّاء والضرّاء حتى الموت وما بعده»؟

قال: «حسناً، الناس أجناس».

قلت: «آمل ذلك. لقد حاولت أن أعيش دون إغضاب الرب أو الناس، وذلك في سبيل شرف وراحة زوجي المسيحي وحب واحترام أولادي المسيحيين، حتى إذا ما رقدت أحتضر واعية بواجبي وجزائي، ستحيط بي وجوه محبّة وسأحمل قبلة الوداع من كل فرد من أحبائي وأضمّها إلى جزائي. ليس كآدي بندرن التي تموت وحيدة، كاتمة كبرياءها وقلبها المسحوق. إنها سعيدة بالرحيل. ها هي ترقد هناك ورأسها مسندة عالياً حتى تستطيع مراقبة كاش وهو يصنع النعش، ومضطرة لمراقبته حتى لا يتعجل فيه ربما، مع أولئك الزجال الآخرين الذين لا يشغلهم شيء عدا مسألة توفر الوقت الكافي لكسب ثلاثة دولارات أخرى قبل هطول المطر وارتفاع منسوب النهر بحيث يتعذر عبوره. وربما لو لم يقرروا تحميل ذلك الحمل الأخير، لكانوا قد حملوها في العربة على لحاف

وعبروا بها النهر أولاً ثم توقفوا ومنحوها الوقت لتموت ميتة مسيحية بقدر ما يسمحون به.

باستثناء دارل. لقد كان ذلك أجمل شيء رأيته. أفقد أحياناً الإيمان بالطبيعة الإنسانية لفترة من الزمن، يهاجمني الشك. ولكن الرب يعيد إليّ إيماني دائماً ويكشف لي حبه الكبير لمخلوقاته. ليس جوويل، ذاك الذي أحبته دائماً، ليس هو. لقد راح هذا يطارد الدولارات الثلاثة الإضافية. كان ذاك هو دارل، الذي يقول عنه الناس إنه غريب الأطوار، كسول ومتسكع في أنحاء المكان، ليس أفضل من آنس، وكاش نجار جيد وينتج أكثر مما يستطيع بيعه، وجوويل يقوم بعمل ما يكسبه بعض المال أو يجعله موضوعاً للأحاديث، وتلك الفتاة العارية تقريباً الواقفة دائماً فوق آدي تروّح لها بالمروحة حتى إذا ما حاول أي شخص أن يتحدث إليها ويدخل بعض السلوان إلى قلبها كانت تجيب عنها فوراً وكأنها تريد إبعاد الجميع عنها.

كان ذلك هو دارل. لقد جاء إلى الباب ووقف هناك ناظراً إلى أمه المحتضرة. نظر إليها فحسب، وشعرت من جديد بالحب الكبير الذي للرب وشعرت برحمته. ورأيت أنها كانت تتظاهر فحسب مع جوويل، وأن التفاهم والحب الصادق كان بينها وبين دارل. نظر إليها فحسب، حتى دون أن يدخل إلى حيث يمكن أن تراه وتنزعج، عالمة بأن «آنس» كان سيقوده إلى مكان بعيد وأنه لن يراها ثانية. لم يقل شيئاً، كان ينظر إليها فحسب.

قالت ديووي ديل دون أن توقف المروحة وبصوت عالٍ لتدفعه حتى هو بعيداً عنها: «ماذا تريد يا دارل؟» لم يجب. بل وقف هناك ونظر إلى أمه المحتضرة، وقلبه متخم إلى حد لم يعد معه للكلمات مكان.

ديووي ديل

كانت المرة الأولى التي قطفنا فيها أنا و «ليف» على امتداد صفّ النباتات. بابا لا يعرق لأنه سيموت من ذلك المرض لذا يأتي الجميع لمساعدتنا. وجوويل لا يهتم بأي شيء حتى أنه لا يبدي الكثير من الاهتمام، ليس من النوع الذي يهتم بالأقرباء. وكاش يحب أن ينشر طوال الأيام الطويلة الحادة الحزينة الصفراء ألواحاً ثم يسمّرها محوّلاً إياها إلى شيء ما. وبابا يظن أن الجيران سيعامل واحدهم الآخر بتلك الطريقة دائماً لأنه كان دوماً مشغولاً إلى حد لا يترك معه للجيران الفرصة كي يفعلوا من أجله ما يجعله يكتشف حقيقتهم. وما كنت أظن أن دارل سيفعل ذلك، وهو ذاك الجالس إلى طاولة العشاء وعيناه قد رحلتا إلى ما هو أبعد من الطعام، مليئتان بالأرض المنبوشة من جمجمته والثقوب مليئة بمسافة أبعد من الأرض.

قطفنا على امتداد الصف، والغابة تصبح أقرب فأقرب وكذلك المأوى السري، نقطف في المأوى السري بكيسي وكيس «ليف». لأني قلت هل سأفعل أم لا حين كان الكيس نصف ممتلىء لأني قلت إن كان الكيس ممتلئاً حين نصل إلى الغابة لن تكون تلك أنا. قلت إن كنت لا

أود أن أفعلها لن يكون الكيس مليئاً وسأبدأ بالصف التالي ولكن إن كان الكيس مليئاً فلا أستطيع المقاومة. سيعني ذلك أني مضطرة لأن أفعل ذلك كل الوقت ولا أستطيع المقاومة... ثم قطفنا باتجاه المأوى السري وعيوننا تغرق معاً وتلامس يديه ويديّ ولم أقل شيئاً. قلت: «ما الذي تفعله؟» وقال: «أنا أقطف وأضع في كيسك». وهكذا كان ممتلئاً حين وصلنا إلى نهاية الصف ولم أستطع المقاومة.

وهكذا حدث ما حدث لأني لم أستطع المقاومة. حينها وحينها بالذات رأيت دارل وعرف هو . قال إنه يعرف دون أن يتلفّظ بكلام كما حدث حين قال لي أن ماما ستموت دون كلام. وأنا عرفت أنه كان يعرف لأنه لو قال إنه يعرف بالكلام لما كنت صدقت أنه كان هناك ورآنا. ولكنه قال إنه لا يعرف وقلت أنا: «هل ستقول لبابا، هل تريد أن تقتله؟» وبدون كلام قلت ذلك وقال: «لماذا؟» دون كلام. ولهذا أستطيع التحدث معه بمعرفة وحقد لأنه يعرف.

يقف عند الباب ناظراً إليها.

أقول: «ماذا تريد يا دارل؟».

يقول: «ستموت». و «تَل» النسر العجوز آت ليراقبها وهي تموت ولكني أستطيع خداعهم.

أقول: «متى ستموت؟».

يقول: «قبل أن نعود».

أقول: «لماذا تأخذ جوويل إذن؟».

يقول: «أريده أن يساعدني في التحميل».

تَـلْ

يظل آنس يفرك ركبتيه. «أوفروله» باهت اللون، على إحدى ركبتيه رقعة من النسيج الصوفي المتين مقصوصة من بنطال يوم الأحد اهترأ من كثرة الكي. يقول: «لا أحد يكره ذلك أكثر مني..».

أقول: «على المرء أن يتنبأ قدماً أحياناً، ولكن مهما تكن النتيجة لن يكون هناك من سوء في الحالين».

يقول: «تريد هي أن ننطلق بها فوراً. المسافة بعيدة إلى جيفرسون على أية حال».

أقول: «ولكن الطرق جيدة الآن». الجو ينذر بالمطر الليلة أيضاً. عائلته تدفن موتاها في «نيوهوب» أيضاً وهي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن هنا. ولكن هذا هو دأبه، أي أن يتزوج من امرأة ولدت في مكان يبعد مسيرة يوم كامل عن هنا وأن يتركها تموت لديه.

ينظر إلى الخارج باتجاه الأرض فاركاً ركبتيه: «لا أحد يكره الأمر بقدر ما أكرهه».

أقول: «سيعودون في الوقت المناسب. لو كنتُ مكانك لما قلقت».

يقول: «يعني ذلك ثلاثة دولارات».

أقول: «ربما لا حاجة بهم إلى الاستعجال بالعودة على أية حال. آمل ذلك».

يقول: «إنها راحلة. لقد قررت ذلك». إنها لحياة صعبة على النساء وهذه حقيقة. نساء رائعات. أتذكر أمي التي عاشت حتى السبعين بل إلى ما بعد السبعين. كانت تعمل كل يوم، مطيراً كان أم مشمساً، لم تمرض أبداً منذ ولد آخر أولادها. إلى أن جاء يوم نظرت فيه من حولها ثم ذهبت وأخرجت من الخزانة قميص نومها المخرّم الأطراف والذي كان لديها منذ خمسة وأربعين عاماً ولم تلبسه قط، وارتدته ثم تمددت في الفراش وغطت نفسها بالأغطية وأغمضت عينيها وقالت: «عليكم جميعاً أن تفتّشوا عن بابا باذلين قصارى جهدكم. أنا متعبة».

يفرك آنس بيديه على ركبتيه. يقول: «الرب يمنح». نستطيع سماع كاش وهو يطرق بمطرقته وينشر خلف الزاوية.

صحيح. لم ينطق أحد بعبارة أصدق من ذلك. أقول: «الرب يمنح».

يصعد ذلك الشاب التل. يحمل سمكة طويلة تقارب طوله هو. يرمي بها إلى الأرض وينخر: «هاه» ويبصق من فوق كتفه كرجل. اللعنة إنها بطوله تقريباً.

أقول: «ما تلك؟ سمكة خنزير؟ من أين حصلت عليها؟».

يقول: «هناك عند الجسر». يقلبها. الجانب السفلي منها قد تعفر بالتراب حيث هي مبلولة، والعين مغطاة، محدبة تحت التراب.

يقول آنس: «هل تهدف إلى تركها مرمية هناك؟».

يقول فاردامان: «أريد أن أريها لماما». ينظر نحو الباب. نستطيع سماع الحديث خارجاً مع تيّار الهواء. وكذلك نسمع كاش الذي يطرق ويضرب الألواح.

يقول: «هناك صحبة في المنزل».

أقول: «عائلتي فحسب. سيستمتعون هم أيضاً برؤيتها». لا يقول شيئاً بينما يراقب الباب. ثم ينظر نحو السمكة المتمددة في التراب. يقلبها بقدمه وينخس نتوء العين بإصبع قدمه، يحاول قلعها، ينظر آنس خارجاً نحو الأرض. ينظر فاردامان إلى وجه آنس. ثم إلى الباب: يستدير ويتجه نحو زاوية المنزل بينما يناديه آنس دون أن يلتفت.

يقول آنس: «نظف تلك السمكة».

يقول فاردامان: «نعم يا بابا».

يقول آنس: «نظفها». لا يلتفت. يعود فاردامان ويرفع السمكة. تنزلق من بين يديه ملوثة إياه بالتراب، ثم تقع على الأرض ممرِّغة نفسها بالتراب من جديد، بفم مفتوح وعينين جاحظتين، تختبىء في التراب كأنها خجلى من الموت، كأنها في عجلة من أمرها للعودة والاختباء من جديد. يشتمها فاردامان. يشتمها كرجل ناضج وهو واقف مفرشخاً فوقها. لا يلتفت آنس. يرفعها فاردامان من جديد. ثم يدور حول المنزل حاملاً إياها بين ذراعيه كأنها حمل من الحطب وهي تتدلى من الجانبين، برأسها وبذيلها. اللعنة أنها بحجمه تقريباً.

تتدلى رسغا آنس من كميه: لم أره يرتدي قميصاً يبدو كأنه له طوال حياتي. كلها كانت تبدو وكأنها قمصان جوويل القديمة. ولا حتى جوويل مع ذلك. إنه طويل الذراعين وإن كان نحيلاً. إلا إذا كانت آثار

التعرق قليلة عندها تستطيع أن تعرف أنها ليست لأي شخص آخر سوى آنس نفسه دون أن تقع في الخطأ. تبدو عيناه كقطعتي جمر محترقتين مثبتتين في وجهه ناظرتين خارجاً عبر الأرض.

حين يلمس الظل الدرج يقول: «الساعة هي الخامسة».

حين أنهض تصل كورا إلى الباب وتقول إنه حان وقت الركوب. يمد آنس يده إلى حذائه. تقول كورا «الآن يا سيد بندرن. ألن تنهض الآن؟» يرتدي حذاءه وهو يدوس الأرض بقوة، كما يفعل كل شيء، كأنما هو يأمل طوال الوقت بأنه لا يستطيع بالفعل أن يؤدي ما عليه وأن يتوقف عن المحاولة. حين نسير في البهو نسمع صوت حذائه وهو يمشي بثاقل فوق الأرضية كأنه يرتدي حذاءً حديدياً، يصل إلى باب غرفتها وهو يرمش بعينيه، كأنه يتنبأ بما سيرى قبل أن يراه، كأنه يأمل في أن يجدها وقد نهضت، جالسة في كرسي أو تمسح الأرض ربما، ثم ينظر من خلال الباب بتلك الطريقة التي تدل على الدهشة ويجد أنها ما تزال في الفراش كل مرة وأن ديووي ديل تزال تروّح لها بالمروحة. يقف هناك وكأنه لا ينوي أن يتحرك ثانية ولا أن يفعل أي شيء آخر.

تقول كورا: «حسناً، أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب فعلي أن أطعم الدجاجات». الجو ينذر بالمطر أيضاً. مثل تلك الغيمات لا تكذب والقطن ينمو مع كل يوم يرسل الرب فيه المطر. سيكون ذلك شيئاً مختلفاً بالنسبة إليه. لا زال كاش يعمل في الألواح صقلاً. تقول كورا: «أتمنى لو كان هناك أي شيء نستطيع أن نفعله».

أقول: «سيعلمنا آنس به في حينه».

لا ينظر آنس إلينا. إنه ينظر فيما حوله ويرمش بعينيه بتلك الطريقة التي تدل على الدهشة، وكأنه قد أنهك نفسه من الدهشة وكان مندهشاً حتى

من ذلك. لو أن كاش يعمل بكل ذلك الحرص عندما يأتي للعمل في حظيرتي.

أقول: «لقد قلت لآنس إنه لن يكون هناك داعٍ لذلك التابوت على الأرجح».

يقول: «لقد صممتْ على ذلك. أعتقد أنها قد عقدت عزمها على الرحيل».

تقول كورا: «هذا يحزننا جميعاً. فليكن الرب إلى جانبك يواسيك».

أقول: «بالنسبة للذرة». ثم أحكي له مرة أخرى أني سأساعده إذا ما أحس بضيق، حيث أنها مريضة وبقية الأمور على ما هي عليه. وكمعظم الناس هنا، لقد سبق وساعدته كثيراً إلى حد أني لا أستطيع التراجع الآن.

يقول: «لقد أردت الشروع بذلك هذا اليوم. ولا يبدو أني أستطيع التصميم على أي شيء».

أقول: «ربما ستصمد حتى تنتهي».

يقول: «انشاء الله».

تقول كورا: «ليكن الله في عونك».

لو أن كاش يعمل فحسب بكل تلك العناية عندما يأتي للعمل في حظيرتي. يرفع عينيه لينظر إلينا ونحن نمر به ويقول: «لا تحسبن أني سأعود إليك هذا الاسبوع».

أقول: «لا داع للعجلة. تعال حين تكون جاهزاً».

نصعد إلى العربة. تضع كورا علبة «الكيك» على حضنها. لا شك أنها ستمطر. بكل تأكيد.

تقول كورا: «لا أعرف ما الذي سيفعله. لا أعرف».

أقول: «يا لآنس المسكين. لقد جعلته يعمل ثلاثين عاماً. أعتقد أنها مُتْعَبَة».

تقول كيت: «وأعتقد أنها ستطارده ثلاثين عاماً أخرى. أو إن لم تكن هي فسيتزوج بأخرى قبل جني القطن».

تقول يولا: «أعتقد أن كاش ودارل يستطيعان الزواج الآن».

تقول كورا: «يا للولد المسكين. يا للطفل المسكين الصغير».

تقول كيت: «وماذا عن جوويل؟»

تقول يولا: «يستطيع هو أيضاً».

تقول كيت: «هه، أعتقد أنه سيفعل. أعتقد ذلك. أعتقد أن هناك أكثر من بنت واحدة في هذه الأنحاء لا تريد أن ترى جوويل وقد أصبح مرتبطاً بزواج. حسناً! ليس عليهن أن يقلقن».

تقول كورا: «عجباً يا كيت!».

تبدأ العربة بالجلجلة. تقول كورا: «ياللطفل المسكين الصغير».

الجو ينذر بالمطر الليلة. نعم يا سيدي. عربة مجلجلة تدل على طقس شديد الجفاف بالنسبة لشخص من آل «بيروسل». ولكن سيتم علاج ذلك. وهذه حقيقة.

تقول كيت: «كان عليها أن تشتري تلك الكعكات بعد أن تعهدت بذلك».

آنس

اللعنة على تلك الطريق. والجو ينذر بالمطر أيضاً. أستطيع أن أقف هنا وأرى الأمر بالبصيرة، أراه ينغلق خلفهم كجدار، ينغلق ما بينهم وبين وعدي الذي أعطيت. أبذل قصارى جهدي، بقدر ما يستطيع ذهني التركيز على أي شيء، ولكن اللعنة عليهم أولئك الأولاد.

إنها تمتد هناك، حتى بابي تماماً، حتى يكون على كل ذي حظ عاثر يأتي ويروح أن يجدها. لقد قلت لآدي إنه ليس من حسن الحظ أن نعيش على طريق تمر من هنا، وقالت كامرأة حقيقية فعلاً: «انهض وتحرك إذن». ولكني قلت لها إنه ليس من الحظ في شيء أن نعيش على الطريق حيث أن الرب جعل الطرق للسفر: عجباً لقد جعلها منبسطة على الأرض. حين يهدف الرب إلى شيء يكون ذا حركة دائمة، فإنه يجعله طويلاً، كالطريق أو الحصان أو العربة، ولكنه حين يهدف إلى شيء مستقر، يجعله على نحو له عال وسافل كالشجرة أو الرجل. وهكذا لم يهدف الرب أبداً إلى أن يجعل الناس تعيش على الطريق، لأنه من الذي يصل إلى هناك أولاً، الطريق أم المنزل؟ هل سبق لك وسمعت أنه يضع طريقاً قرب منزل؟ هكذا أقول. ثم أقول لا، لم

تسمعي بذلك أبداً لأن الرجال لا يستطيعون أن يرتاحوا حتى يبنوا المنزل حيث يستطيع كل من يمر في عربة أن يبصق على مدخله، جاعلاً أصحابه قلقين وراغبين في النهوض للذهاب إلى أماكن شتى أخرى في حين كان الرب يهدف إلى أن يبقيهم مستقرين كالشجرة أو مجموعة من نباتات الذرة. لأن لو كان يهدف إلى أن يكون الإنسان دائم الحركة والإنتقال والذهاب إلى أماكن شتى أخرى، أما كان سيخلقه على نحو متطاول يدبّ على بطنه كالحية؟ العقل يقول إنه كان سيفعل ذلك.

لقد وضعه حيث يستطيع كل ذي حظ عاثر متجول أن يجده ويأتي مباشرة إلى بابي ومطالباً إياي بالضريبة فوق ذلك كله. يجعلني أدفع لكاش حيث انتابته هواجس التجارة تلك. ولولا وجود الطريق لما كانت ستنتابه تلك؛ وها هو يسقط من فوق سقوف الكنائس ولا يستطيع أن يرفع يداً في ستة أشهر أنا وآدي نعمل ونكدح كالعبيد، رغم أن هناك الكثير من النشر في البيت كان يستطيع أن ينجزه لو كان مضطراً إلى النشر.

ودارل أيضاً. يحاولون أن يصالحوني معه اللعنة عليهم. ليس الأمر أني خائف من العمل، لقد أقمت أَوَد نفسي وعائلتي دوماً وكان لنا مأوى باستمرار: ولكن الأمر هو أنهم يريدون كفّ يدي لأنه يميل إلى عمله الخاص به، وذلك فحسب لأنه يضع الأرض نصب عينيه كل الوقت. أقول لهم إنه كان جيداً في البداية وقد وضع الأرض نصب عينيه لأن الأرض كانت تعطي يوماً وتبخل آخر آنذاك. ولم يحدث أن بدأوا يهددونني من خلاله محاولين كف يدي بواسطة القانون إلا بعد أن جاءت تلك الطريق وحوّلت الأرض طولياً وعيناه لا زالتا نصب الأرض.